

## إيفيان

في السنة الماضية، على سبيل المثال لا الحصر، تُوفي قارب محمل باللاجئين بسكتة قلبية، حين وصلت أول سفينة إلى مكان الاستغاثة، كان البحر الأبيض المتوسط قد غرق تمامًا، وجدوا الماء مختنقًا، وجدوا الأمواج مبللة بالمياه، وجدوا الاتحاد الأوروبي يحاول أن يتعلق بقطعة خشبٍ من بقايا القارب لكي ينجو، لم يجدوا الأطفال.

نتائج التحقيق الأولية أشارت بشكل واضح إلى أن صور الأقمار الصناعية قد أظهرت أن القارب الغارق لم يكن يعرف السباحة.

في نشرة أخبار الثامنة مساءً، وبينما كانت مياه البحر الأبيض المتوسط تسيل بهدوءٍ من التلفزيون إلى الأرضيات الخشبية في غرف الجلوس، مسببة ارتباكًا بين العائلات السعيدة في البلاد الآمنة، ومحدثًا اضطرابًا من الدرجة الثانية على الأداء الجنسي للأغلبية الصامتة في وسط وشمال أوروبا، وبطريقةٍ مبالغٍ تشبه نمو الفطر في الغابات، تساءلت سيدهُ أوروبيةٍ من الطبقة الوسطى، عن سبب مجيئهم عن طريق البحر وليس بالطائرة بعد حصولهم على الفيزا. لشدة البراءة البيضاء انتحر التلفزيون.

في تعليقه على الحادث المأساوي، قال مسؤول الاندماج في دائرة الهجرة في اتصال هاتفي، ماذا سنفعل الآن؟ لقد ماتت الشحنة الجديدة من اللاجئين الذين سينظفون خراء المتقاعدين الأوروبيين العجائز!

في نشرة أخبار الثامنة مساءً، قالت مذيعة بيضاء لم تنجب أطفالاً من قبل، نقلاً عن متخصصٍ بشؤون الشرق الأوسط لم يزر الشرق الأوسط من قبل: إنَّ الأطفال ربما قد يكونوا اختفوا لأسباب ما بعد حدثية حين كانوا يلعبون الغمُضة.

عيسى بن مريم كان الناجي الوحيد، وجدوه يمشي فوق وجه الماء.

### هامش ١:

سيسرقون وظائفنا وبيوتنا، وسيغورون نساءنا، سيسخوذون على الموارد التي خصصناها للفقراء، وسيستل بينهم المجرمون والجواسيس، تدفقهم سيزعزع الاستقرار، وسيؤدي إلى تفكك المجتمع. مظهرهم سيء، وينقلون الأمراض، معاييرهم مغايرة، وثقافتهم مختلفة، وأخلاقهم غريبة، ولن يستطيعوا الاندماج.

### هامش ٢:

جميع الكلمات العنصرية التي وردت في هامش ١، لا تحيل إلى أزمة اللاجئين الحالية كما يسمونها، والتي يُقصد بها اللاجئين السوريين في هذه الأيام. إنما استعملت على نطاق واسع من قبل وسائل الإعلام الغربية لوصف اللاجئين اليهود من ألمانيا والنمسا، الذين حاولوا الفرار من النازيين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية.

### هامش ٣:

في عام ١٩٣٨، اجتمع ٣٢ بلدًا في مؤتمر إيفيان لمناقشة أزمة اللاجئين اليهود من ألمانيا والنمسا. رفضت الولايات المتحدة زيادة الحصص السنوية للاجئين حتى قبل بدء الاجتماع. بريطانيا صرحت إن المملكة ليست بلدًا للهجرة. جميع الدول رفضت استقبالهم. بتاريخ ١٣ يوليو، كتبت جريدة الحزب النازي "فولكشير بيوباتشتر" بنبرة المنتصر: "لا أحد يريدهم" (لدي إحساس داخلي أن الذي كتب المقال هو أدولف هتلر شخصيًا). بعد أربعة شهور من نهاية المؤتمر، قام النازيون بليلة الكريستال، ثم بدأوا تدريجيًا بحل المشكلة اليهودية بطريقتهم الخاصة، التي انتهت كما نعرف، بالحل النهائي.

## العاصمة

- ما هي عاصمة الكونغو الديمقراطية؟  
- أنتويرب.

في هذه المدينة التي تتغذى على الألماس.  
تنمو الأسلاك الشائكة في قصائد الشعراء.  
تموت المواعيد في الرزنامة.  
تتوقف يدي عن لمس شفتيك.  
يتوقف رجال الشرطة عن الضحك.  
تتوقف سيارة التاكسي التي قُتل سائقها برصاصة قنّاص في دمشق أمام المحطة المركزية في أنتويرب.  
يتوقف الإرهاب في البلاي ستيشن.  
وأنا أتأبط نفسي، وأتوقف عن التوقف.  
أفكر في المسافة بين شفتي وجلدك.  
كأنني لم أولد في مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين في دمشق عام ١٩٧٩.  
كأنك لم تولد في مجرة درب التبانة.

في هذه المدينة التي يمحو فيها الدّم عن الألماس بنفس العناية التي يمسخ بها الأطباء الدّم عن جرح مُصاب، قاموا بإنقاذ حياته.  
أمرٌ خفيفاً، كما تُمرّ دبابّة على الإسفلت.  
حاملاً قصائدي مثل بائع متجول.  
كلّما سرّحت في اتجاه البحر أكلتني الصحراء التي تخرج من حقائب المهاجرين.  
ومن جواز سفري الذي لم يعترف به أحد سواك.  
أنا صاحبُ القصائد التي تتحدّث عن الموت، وكأنّها تتحدّث عن الأمل.  
وعن الحرب، وكأنّ الله موجود.  
منذ مات أصدقائي أصبحت ذنباً وحيداً.  
أحاصر الفرخ في الزاوية، وأدوسه كحشرة ضارة.  
أصدقائي الذين قُتلوا تحت التعذيب يجلسون بجانبهم بكامل أناقتهم، وكأننا في حفل استقبال.  
وأمي تتفقّدي عبر الأسلاك.  
لكي تتأكّد أنني لا أزال أبول على هذا الكوكب.

لقد نظفتُ غرفتي من أيّ أثر للموت.  
كيلا تشعري حين أدعوك إلى كأس نبيذ.  
أنني ورغم أنني في ستوكهولم.  
لا أزال في دمشق.

في هذه المدينة التي تتغذى على ألماس الدّم.  
أندكر عرس الدّم.  
أندكر النسيان.  
أقف في منتصف صورة جماعية بالأسود والأسود تجمع شعراء مرّوا من هنا.  
تحيلني الهوامش التي تركتها بجانب قصائدي إلى الحزن.  
يتحوّل قلبي إلى فزاعة خشبية لطرد طيور هيتشكوك.

قلبي البريء الذي لا يحتمل.  
 يصبح قاسياً كالكمات الصريحة.  
 ويتحول الشارع إلى دفتر.  
 أنت الوحيدة التي باستطاعتها تحويل الشارع إلى دفتر.  
 تُمسكين ببراءة يدي، لكي تقطع رأس السنة.  
 فينهار البنك الدولي.  
 وتقف الطبقة الوسطى ضد المهاجرين.  
 يقف رجل الأمن مسلحاً بالتاريخ، ليرسم سداً بين الضواحي والفرح.  
 يقف لون البشرة مثل حاجز تقنيش بيننا.  
 بين الميناء الذي يستورد الحريرة  
 والشارع الممتد من المقبرة إلى غرفة النوم.  
 لم تُتعبني الحرب.  
 بل القصائد التي تتحدث عن الحرب.  
 لم تُتعبني المدن الباردة.  
 لكنّها أكلت أصابعي تلك القصائد التي تتحدث عن المدن الباردة.  
 وأنا لا أستطيع الرقص دون أصابعي.  
 لا أستطيع أن أشير إلى الشرق دونها.  
 سكتة قلبية تقتل ساعة الحائط.  
 وأصدقائي يشهدون زوراً بأن الحياة رائعة.  
 هذه المدينة تنهار إلى الداخل، كأنها تُقَب أسود.  
 أقصدُ تقياً أخضر.  
 والشارع يركض خانقاً.  
 إنَّها المرّة الأولى التي أرى فيها شارعاً يركض في الشارع.  
 إنَّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها بيتاً يتكئ على ضحكة المرأة الحزينة التي نسيتهما في المطبخ، ليظلّ واقفاً.  
 وعلى رائحة التوابل التي بعثرتها القذيفة، ليظلّ حياً.  
 الجيران هربوا دون أن يُغلقوا النوافذ المفتوحة على المجزرة.  
 دون أن يُغلقوا كتاب فن الطبخ المفتوح على الصفحة رقم ٧٣.  
 عصافير الشجرة المجاورة انتقلت إلى البيت.  
 سكنت في خزانة المطبخ نصف المفتوحة.  
 ستقتلها قذيفة هاون من عيار ١٢٠ ملم صنعت في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٧ لمحاربة الإمبريالية.  
 الكنار مات من الجوع في القفص.  
 إنَّها الحرب.  
 تموت الكنارات من الجوع في أفصافها حين يختفي سجانها.  
 سجانها الذي خرج من البيت، ولم يعد.  
 البيت الذي انهار على قصائد الشعراء الذين خانتهم بلادهم.  
 بلادهم التي كانوا يبكون منها، وأصبحوا يبكون عليها.  
 ها هم يقرؤون حزنتهم أمام الغرباء.  
 بقصائدهم يكسرون الوقت.  
 بأيديهم يقرعون الأجراس.  
 لكن، لا أحد لديه الوقت، ليسمع الصدى إلا بعض القتلى.  
 والنادلة في البار تفتح معي نقاشاً حول أحقية السوريين في الموت بطريقة لائقة، حيث يكون الجسد كاملاً.  
 قطعة واحدة.  
 وعن الوحدة.  
 عن أحقية أن يجد المرء شخصاً ينام بجانبه في المساء.  
 وأن يتركه نائماً حين يذهب إلى عمله في الصباح.  
 دون أن يطلب منه الرحيل.

- حسناً.  
لِنُنزِلَ عن ظهرنا هذا الكيسَ المليءَ بالحجارة.  
ونصرخ بصوتٍ خافتٍ عن طريقِ الكيبورد.  
نحنُ الموقَّعونَ فوقَ الإسفلتِ.  
نُعلنُ أننا تعبنا.  
وأننا بَعْضَ النظرِ عن خلفياتنا التي أتينا منها.  
فإننا نُعاني من نفسِ الخراء.  
أنا أيضاً مثلك، أسكنُ وحيداً في شقَّةٍ بثلاثِ نوافذِ.  
اثنتانِ تُطلانِ على أنتويربِ.  
أما الثالثةُ، فهي شاشةُ كومبيوترِ التي تُطلُّ على دمشقِ.  
- هل زرتِ دمشقَ؟  
- لا.  
- حسناً، سوفَ أحاولُ أن أصفها لكِ، درجةُ الحرارة في الصيفِ ٣٧ مئوية، إنَّها المدينةُ التي تتطابقُ فيها درجةُ الحرارة في الصيفِ مع درجة حرارة جسمِ الإنسانِ.  
- هل زرتِ أنتويربَ؟  
- لا.  
- حسناً، سوفَ أحاولُ أن أصفها لكِ، إنَّها ألماسةٌ دمٌ تتلألأ خلفَ الواجهاتِ المضاءةِ بالأبيض، بريقتها يعكسُ ظلالَ رجلِ أسودٍ، وجدَّها في كينشاسا، ثمَّ وجدَّ مقتولاً برصاصةِ صديقه، من أجلِ أن ترتدي امرأةٌ من مونتريالِ خاتماً، فيه حجرُ ألماسٍ مصقولٌ في تلِّ أبيب، أهداهُ لها زوجها المولودُ في بيونيسِ أيريس حين كانا في رحلةٍ إلى صحراءِ أريزونا، لكي تسامحهُ على خيانتِهِ لها مع صديقتها الجنوبِ أفريقية حين كان يغسلُ أموالهُ في دبي.  
- هل تعلمين ما هو وجهُ الاختلافِ والتشابهِ بين الصحراءِ وغسيلِ الأموال؟  
- لا.  
- الاختلافُ أنَّ الصحراءَ تحتاجُ إلى ماءٍ، أمَّا غسيلُ الأموالِ، فلا.  
- والتشابهُ؟  
- التشابهُ هو أنَّ غسيلَ الأموالِ هو غسيلُ جافٍ، جافٌ كالصحراءِ التي في أريزونا.  
حسناً، لا مجالَ للإنكارِ أنني أسبخُ فيك، كما تسبخُ فراشةٌ داخلَ الماغما.  
وأطعمُك كلماتي، لكي تكبري ببطيءٍ، كما تكبرُ رفةُ الدمارِ التي أحدثها ارتطامُ حزنكِ بأيامي.  
لقد كانَ لوجودك في حياتي أثرٌ سلبيٌّ على شعري ما بعد الحداثة في النصفِ الشمالي من الكرة الأرضية.  
ويجبُ أن أعترفَ لكِ أنَّ الكثيرَ من قصائدي قد انتهت مدَّةُ صلاحيتها، بسببِ الظهورِ المفاجئِ لمجازتكِ فيها.  
وأنك ساهمتِ من خلالِ حملاتكِ الممنهجة لإضافةِ الهوامشِ إلى نصوصي في إحداثِ ثقبٍ في الخزانِ الذي يحفظونَ به اللغةَ العربية.  
وأنك قمتِ بإحيائي مع سبقِ الإصرارِ والترصدِ.  
وهذه جريمةٌ يُعاقبُ عليها دستورُ الشعراءِ.  
وأنَّ تفاصيلكِ المبعثرة في أرجاءِ منزلي تثيرُ شهوتي، لكي أرمي التلفزيونَ من النافذةِ.  
وأجلسُ، لكي أشاهدكِ أنتِ حين تقومينَ بقتلِ الوقتِ.  
أعترفُ أيضاً أنَّ هناكَ الكثيرَ من الأشياءِ المريبةِ التي بدأتِ بالحدوثِ منذُ شممتِ رائحةَ نهديكِ.  
على سبيلِ المثالِ:  
كسرتِ العديدَ من كووسِ النبيذِ خلالَ الفترةِ التي انتقلتِ بها إلى منزلي.  
أغلقتها انتحرتُ بالفقر من يدي خلالَ محاولتي غسلها من بقايا أحمرِ شفاهكِ.  
سرقنتُ بعضَ الوقتِ، لكي أجعلَ يومي ٢٥ ساعة.  
زوّرتُ ملامحي، لكي أبْدُو سعيداً.  
أحببتُكِ.  
قلْتُ في حوارِ صحفيٍّ بعدَ أن التقيتُكِ إنني لم أكذبُ في حياتي سوى مرّتينِ.  
وكانتِ تلكَ كذبتِي الثالثةُ.

ورغم كلِّ التراجيديا السعيدة التي تمرُّ بها حياتي.  
رفضت أن تُطلقِي رصاصَةَ الرحمةِ على رأسي حين رجوتُك أنْ تفعلِي.  
ومَحَّتِي حياةٌ جديدةٌ.

تتَهَمِينِي بعدمِ الموضوعيةِ في قصائدي، حسناً، لم أكنْ موضوعياً طوالَ حياتي، لقد كنتُ دائماً منحازاً، وأكيلُ بمكيالين، كنتُ منحازاً للسودِ أمامِ العنصريةِ، للمقاومةِ أمامِ المحتلِّين، للميليشياتِ أمامِ الجيوش، كنتُ منحازاً للهنودِ الحمرِ أمامِ الرجالِ البيضِ، لليهودِ أمامِ النازيين، للفلسطينيينِ أمامِ الإسرائيليين، للمهاجرينِ أمامِ النازيينِ الجُدُد، للعجْرِ أمامِ الحدودِ، للسكَّانِ الأصليينِ أمامِ المستعمرين، للعِلْمِ أمامِ الدينِ، للحاضرِ أمامِ الماضي، للنسويةِ أمامِ البطريركيةِ، للنساءِ أمامِ الرجالِ، لكِ أَمَامَ النساءِ، لكافكا أمامِ الروتينِ، للشعرِ أمامِ الفيزياءِ...

...  
...  
...

الفيزياء.  
لعنةُ اللهِ على الفيزياء.  
لماذا يغرقُ المهاجرونُ، وبعدَ أنْ يلفظوا أنفاسَهُم الأخيرةَ يطفونَ فوقَ وجهِ الماءِ؟  
لماذا لا يحدثُ العكسُ؟  
لماذا لا يطفو الإنسانُ حينَ يكونُ حياً، ويغرقُ حينَ يموتُ؟

حسناً.  
فلنُسمِ الأشياءَ بمسمياتِها.  
الكُنُوبُ مقابرٌ للقصائدِ.  
البيوتُ خيامٌ إسمنتيةٌ.  
الكلابُ ذئابٌ، ارتضتِ الذَّلَّ.  
سجادةُ الصلاةِ تذكرُني ببساطِ الريحِ.  
غرفتني وقعتُ بحبِّ حذائكِ الأخضرِ.  
أنا أغرقُ فيك، كما يغرقُ السوريونُ في البحارِ.  
يا إلهي.  
انظري إلي أين أوصلتنا الحربِ.  
حتَّى في أسوأِ كوابيسي، لم يخطر لي  
أنني في يومٍ من الأيامِ.  
سأقولُ في قصيدةٍ:  
أغرقُ فيك، كما يغرقُ السوريونُ في البحارِ.

كلُّ قذيفةٍ تسقطُ على دمشقَ، إنَّما تُمزَّقُ صفحةً من كتابِ ديكارتِ.

حينَ وُلِدْنَا.  
كانتِ الحياةُ ملوَّنةً.  
وكانتِ الصورُ بالأسودِ والأبيضِ.  
اليومِ أصبحتِ الصورُ ملوَّنةً.  
وأصبحتِ الحياةُ بالأسودِ والأبيضِ.

## التفاصيل

أتعرفُ لم يموتُ الناسُ حين تتقبهم رصاصة؟  
لأن 70% من جسم الإنسان يتكوّن من الماء  
تماماً كما لو أنّك تُحدثُ ثقباً في خزان ماء.  
\* \* \*

أكانَ اشتباكاً اعتبارياً يرقصُ في رأسِ الحارّةِ حين مررتُ؟  
أم أنّ قنصاً كان يترصدني وبعدهُ خطواتي الأخيرة؟  
\* \* \*

هل كانتُ رصاصةً طائشةً؟  
أم أنّني الذي كنتُ طائشاً بالرغمِ من بلوغه ثلثَ قرنٍ من العمر؟  
\* \* \*

أهي نيرانٌ صديقةٌ؟  
كيف؟  
وأنا لم أصادقُ نيراناً من قبل.  
\* \* \*

أترى أنا من مرّ في طريق الرصاصةِ فأصابها؟  
أم مررتُ هي في طريقي فأصابتني؟  
ثم كيف لي أن أعرفَ مواعيدَ مرورها وأية طريقٍ ستجتاز؟  
\* \* \*

هل التقاطعُ مع رصاصةٍ يعتبرُ حادثَ اصطدامٍ بالمعنى التقليدي؟  
كالذي يحدثُ بين سيارتين؟  
وهل جسدي وعظامي الصلبَةُ ستحطمُ ضلوعها أيضاً؟  
وتنسبُ في وفاتها؟  
أم أنها ستنجو؟  
\* \* \*

هل حاولتُ أن تنفادني؟  
هل كان جسدي طرياً؟  
وهل شعرتُ تلكَ الصغيرةً مثل حبة توتٍ بأنوثتها في ذكورتني؟  
\* \* \*

القنصُ صوبَ نحوي بدون أن يكلفَ نفسه عناءَ معرفة أن لدي حساسيةً من رصاصِ القناصةِ، وهي حساسيةٌ من الدرجة الأولى، وقد تؤدّي للوفاة.

\* \* \*

القناصُ لم يستأذنيّ قبلَ أنْ يُطلقَ، وفي هذا قلّةٌ أدبٍ واضحةٌ أصبحتُ خطأً شائعاً في هذه الأيام.  
\* \* \*

كنتُ أبحثُ عن الفرقِ بين الثورة والحربِ عندما عبرتُ رصاصةً جسدي، فانطفأتُ شُعلةٌ أوقدتها معلمةٌ مدرسةً ابتدائيةً من سوريا بالاشتراكِ مع لاجئٍ فلسطيني دَفَعَ أرضَهُ حلاً لمعاداةِ السّاميةِ في أوروبا وهُجِرَ إلى حيثُ التقى امرأةً تشبهُ الذكرياتِ. لقد كان شعوراً رائعاً، يشبهُ أكلَ قطعةٍ متلجأتٍ في الشتاء، أو ممارسةَ الجنسِ دونِ واقٍ مع امرأةٍ غريبةٍ في مدينةٍ غريبةٍ تحت تأثير الكوكايين، أو...

يقولُ لي عابراً نصفَ ما يرغبُ في قوله فأصدِّقه ثم نطعنُ بعضنا كعاشقين، تومئُ لي سيدةٌ أن أتبعها فأفعلُ ونجبُ طفلاً يشبهُ الخيانةَ، يقتلني قناصٌ فأموتُ، السماءُ تسقطُ على المارةِ فيهربُ السياحُ، السماءُ تسقطُ على المارةِ ولا يهربُ قلبي، السماءُ تسقطُ إلى الأعلى فينتحرُ شاعرٌ في غرفته انتحاراً جماعياً رغمَ أنّه كان وحيداً ذلك المساء.

في ذلك المساء، داهمني النسيانُ على غفلةٍ فاشتريتُ ذاكرةً جندي لم يعد من الحربِ، وحين انتبهتُ إلى خللِ الوقتِ لم أستطعُ أنْ أجدَ منقياً يلبقُ بحرجي لذلك قررتُ ألا أموتَ ثانيةً. المدينةُ أقدمُ من الذكرياتِ، اللعنةُ مسورةٌ بالاكْتئابِ، الوقتُ متأخِرٌ عن مواعيدِهِ، الأسوارُ تحيطُ الزمنَ بالرتابةِ، الموتُ يشبهُ وجهي، الشاعرُ يتكئُ على امرأةٍ في قصيدتهِ، الجنرالُ يتزوجُ زوجتي، المدينةُ تتقيأُ تاريخها وأنا أبتلعُ الشوارعَ وبيتلغني الزحامُ، أنا الذي أوزغَ دمي على الغرباءِ، وأتقاسمُ زجاجةَ النبيذِ مع وحدتي، أرجوكم، أرسلوا جثتي بالبريد السريع، وزعوا أصابعي بالتساوي على أصدقائي. هذه المدينةُ أكبرُ من قلبِ شاعرٍ وأصغرُ من قصيدتهِ، لكنّها كافيةٌ لينتحرَ الموتى دونَ أنْ يزعجوا أحداً، ولتزهَرِ إشاراتُ المرورِ في الضواحي، ليصبحَ الشرطيُّ جزءاً من الحلِّ والشوارعُ مجردَ خلفيّةٍ للحقيقة.

في ذلك المساء، حين تعنّرتُ قلبي، أمسكتني دمشقياًً وعلمتني أجديةً شهوتها، كنتُ ضائعاً بين الله الذي زرعه الشيخُ في قلبي وبين الله الذي لمستهُ في فراشها، ذلك المساء،  
أمي وحدها من عرفتُ أنّي لن أعود،  
أمي وحدها من عرفتُ،  
أمي وحدها،  
أمي.

لقد بعثُ أيامي البيضاءً في السوقِ السوداءً، واشتريتُ منزلاً يطلُّ على الحربِ، لقد كانتِ الإطلالةُ رائعةً لدرجةٍ أنّي لم أقاومُ إغراءها، فانتحرتُ قصيدتي عن تعاليمِ الشيخِ، واتهمني أصدقائي بالغزلةِ، وضعتُ كُحلاً على عيني فازدادتُ عروبتي، وشربتُ حليبَ الناقةِ في الخلمِ فصحوتُ شاعراً، كنتُ أراقبُ الحربَ كما يراقبُ المصابون بالجدامِ عيونَ الناسِ، ولقد توصّلتُ إلى حقائقٍ مرعبةٍ عن الشبعرِ والرجلِ الأبيضِ، عن موسمِ الهجرةِ إلى أوروبا، وعن المدنِ التي تستقبلُ السياحَ في أيامِ السّلمِ والمجاهدينِ في أيامِ الحربِ، عن النساءِ اللواتي يُعانينَ الأمرينَ في أيامِ السّلمِ ويُصبحنَ وقوداً للحربِ في أيامِ الحربِ.

في مدينةٍ أُعيدَ إعمارها مثل برلين، يكمنُ السرُّ الذي يعرفهُ الجميعُ، وهو أنّ الـ...  
لا، لن أكرّرَ ما هو معروفٌ، لكنني سأخبركم بما لا تعرفون: ليستُ مشكلةُ الحربِ فيمن يموتون، مشكلتها فيمن يبقونَ أحياءً بعدها.

لقد كانت أجمل حرب خضتها في حياتي، مليئة بالمجازات والصور الشعرية، أتذكر كيف أنني كنت أتعرقُ أدريناالينا، وأبول دحناً أسود، كيف كنتُ أكلُ لحمي وأشربُ صراخاً، كان الموتُ بجسده الهزيل يتكئُ على ما اقترفتُ قصيدته من خرابٍ، ويمسحُ سكينه من ملحي، وكانت المدينة تفركُ حذائي بمسائها فيبئسُ الطريقُ، وتعدُّ أصابع حزني وتُسقطُها في الطريق إليها، الموتُ يبكي والمدينةُ تتذكَّرُ ملامحَ قاتلها وترسلُ لي طعنةً عن طريق البريد، تهددني بالفرح، وتنتشرُ قلبي على حبل غسلها الممدود بين ذاكرتين، وأنا يشدني النسيانُ إليّ، عميقاً إليّ، عميقاً، فتسقطُ لغتي على الصباح، تسقطُ الشرفاتُ على الأغاني، المناديلُ على القُبلاتِ، الشوارعُ الخلفيةُ على أجسادِ النساءِ، تفاصيلُ الأزقةِ على التاريخ، تسقطُ المدينةُ على المقابر، الأحلامُ على السجون، الفقراءُ على الفرح، وأنا أسقطُ على الذكرى.

حين أصبحتُ عضواً في اتحادِ القتلى، تحسنتُ أحلامي، وأصبحتُ أمارسُ التأوُّبَ بحرية، ورغمَ طولِ الحربِ التي تُغَيِّبُ قُربَ جسدي المنتفخ، إلا أنني وجدتُ متسعاً من الوقتِ كي أصادقُ كلباً مشرداً، اختارَ ألا يأكلَ من جنتي رغمَ جوعه، واكتفى بالنومِ قُربَ قدمي.

حاولَ عدَّةُ أشخاصٍ انتشالي، إلا أنَّ القنَّاصَ ناقشَهُم بيندقيته فغيَّرُوا رأيهم، لقد كانَ قنَّاصاً شريفاً، يعملُ بأمانة، ولا يضيعُ وقتاً وأناساً.

ذلك الثقبُ الصغير  
المتبقي بعد مرور الرصاصة  
أفرغَ محتوياتي  
لقد كانَ كلُّ شيءٍ يتسرَّبُ بهدوء  
الذكرياتُ  
أسماء الأصدقاء  
فيتامين C  
أغاني الأعراس  
القاموسُ العربي  
درجة حرارة 37  
حمضُ البول  
قصائدُ أبي نواس  
ودمي.

في اللحظة التي تبدأ فيها الرُّوحُ بالهروب من البوابة الصغيرة التي فتحتها الرصاصة، تصبحُ الأشياءُ أكثرَ وضوحاً، النظريةُ النسبيةُ تتحولُ إلى أمرٍ بديهي، معادلاتُ الرياضياتِ التي كانتُ مُبهمةً تغدو أمراً يسيراً، أسماءُ زملاءِ الدراسة الذين نسينا أسماءهم تعودُ إلى الذاكرة، الحياةُ بكاملِ تفاصيلها تُضيءُ فجأةً، غرفةُ الطفولة، حليبُ الأم، الرعشةُ الأولى، شوارعُ المخيم، صورةُ ياسر عرفات، رائحةُ القهوة مع الهيل في ثنابا المنزل، صوتُ أذانِ الصبح، مارادونا في المكسيك عام 1986، وأنتِ.

تماماً، كما لو أنكِ تأكلُ أصابع حبيبتك، تماماً كما لو أنكِ ترضعُ سلكَ الكهرباء، كما لو أنكِ تأخذُ لقاحاً ضدَّ الشظايا، كما لو أنكِ لُصُّ ذكرياتٍ، تعالِ لئُمسكَ عن الشَّعر، ونستبدلُ أغنياتِ الصيفِ بِشائشٍ طيبي، وقصائدَ الحصادِ بخيطانِ العمليَّاتِ الجراحية، اتركِ مطبخك وغرفةَ الأطفالِ واتبعني لنشربِ الشاي خلفَ أكياسِ الرمل، إنَّ المجزرةَ تتسعُ للجميع، ضعِ أحلامك في السقيفةِ واسقِ نباتاتِ الشُّرفةِ جيداً، فقد يطوُّنُ النقاشُ مع الحديد، اتركِ خلفك جلالَ الدين الرومي وابن رشد وهيجل، واجلبِ معك ميكافيللي وهنتنجتون وفوكوياما، فنحن نحتاجهم الآن، اتركِ ضحكاتك وقميصك الأزرق وسريرك الدافئ، وهاتِ أظفارك وأنيابك وسكينَ الصَّيدِ وتعال.



ارم عصر النَّهضةِ واجلبُ محاكمَ التفتيشِ  
ارم حضارةُ أوروبا واجلبُ ليلةَ الكريستال  
ارم الاشتراكيةَ واجلبُ جوزيف ستالين  
ارم قصائدَ رامبو واجلبُ تجارةَ الرقيقِ  
ارم ميشيل فوكو واجلبُ فايروس الإيدز  
ارم فلسفةَ هابيدغر واجلبُ نقاءَ العرقِ الأري  
ارم شمسَ هيمنجواي التي لا تزالُ تُشرقُ واجلبُ رصاصةً في الرأسِ  
ارم ليلةَ فان غوخ المضيئةَ بالنجومِ واجلبُ أذنه المقتوعةَ  
ارم غورنيكا بيكاسو واجلبُ غورنيكا الحقيقيةَ برائحةِ دَمها الطازجِ  
نحنُ نحتاجُ هذه الأشياءَ الآن، نحتاجُها كي نبدأَ الاحتفالَ.

## كيف أصبحت...

سقط حزنُها من الشرفة وانكسر، أصبحت تحتاج إلى حزنٍ جديد، حين رافقتُها إلى السوق، كانت أسعارُ الأحران خياليةً فنصحْتُها أن تشتري حُزناً مستعملاً، وجدنا حزنًا في حالةٍ جيدة، غير أنه واسعٌ قليلاً، كان كما أخبرنا البائعُ لشاعرٍ شابٍ انتحَرَ في الصيفِ الماضي، أعجبها الحزنُ وقرّرنا أخذه، اختلفنا مع البائع على السعر، فقال إنه سيعطينا قلماً يعودُ إلى الستينياتِ كهديةٍ مجانيةٍ إن اشترينا الحزن، وافقنا وكنتُ فرحاً بهذا القلق الذي لم يكن في الحسبان، أحسنتُ بفرحتي فقالت هو لك، أخذتُ القلق في حقيبتي ومضيّنا، مساءً تذكرتُ القلق، أخرجتُه من الحقيبة وقلبتُه، لقد كان بجودةٍ عاليةٍ وبحالةٍ جيدةٍ رغم نصف قرنٍ من الاستعمال، لا بدّ أن البائع يجهلُ قيمتهُ وإلا ما كان ليعطيناهُ مقابلَ شراء حزنٍ رديءٍ لشاعرٍ شابٍ، أكثرُ ما أفرحني به هو أنه قلقٌ وجودي، مشغولٌ بحرفيةٍ عاليةٍ وفيه تفاصيلٌ غايةً في الدقة والجمال، لا بدّ أنه يعودُ لمتقفٍ موسوعيٍ أو سجينٍ سابقٍ، بدأتُ باستعماله فأصبح الأرقُ رفيقاً أيامي، وصرتُ من مؤيدي مباحثاتِ السلام، توقفتُ عن زيارةِ الأقاربِ وازدادتُ كتبُ المذكراتِ في مكتبتي ولم أعد أبدو رأياً إلا ما ندر، صارَ الإنسانُ عندي أعلى من الوطنِ وبدأتُ أشعرُ بمللٍ عامٍ، أمّا أكثرُ ما لفت انتباهي هو أنني أصبحتُ شاعراً.

## المجزرة

المجزرة مجازٌ ميثٌ يأكل أصدقائي، يأكلهم بلا ملح، كانوا شعراء، وأصبحوا مراسلين مع حدود، كانوا متعبين وأصبحوا متعبين جداً، "يعبرون الجسر في الصباح خفافاً"، ويموتون خارج التغطية، إنني أراهم بالمناظير الليلية، وأتتبع حرارة أجسادهم في الظلام، ها هم يهربون منها إليها، مستسلمين لهذا المساح الهائل، المجزرة أهم الحقيقية، أما الإبادة الجماعية فهي مجردُ قصيدةٍ كلاسيكيةٍ يكتبها جنرالاتٌ مثقفون أُحيلوا إلى التقاعد، الإبادة الجماعية لا تليق بأصدقائي، فهي عملٌ جماعي منظم، والأعمال الجماعية المنظمة تذكرهم باليسار الذي خذلهم.

المجزرةُ تصحو باكراً، تحمّم أصدقائي بالماء البارد والدم، تغسلُ ملابسهم الداخلية وتعدُّ لهم الخبز والشاي، ثم تعلمهم قليلاً من الصيد، المجزرة أحنُّ على أصدقائي من الإعلان العالمي لحقوق الانسان، فتحتُّ لهم الباب حين غلقتُ الأبواب، ونادتهم بأسمائهم حين كانت نشراتُ الأخبار تبحث عن عدد الضحايا، المجزرة هي الوحيدة التي منحتهم اللجوء بغض النظر عن خلفياتهم، لم يهملها وضعهم الاقتصادي، لم يهملها إن كانوا مثقفين أو شعراء، إنها تنظر إلى الأشياء من زاوية محايدة، لها نفس ملامحهم الميئة، وأسماءُ زوجاتهم الأرامل، تمرُّ مثلهم على الأرياف والضواحي، وتظهرُ فجأة مثلهم في الأخبار العاجلة،

المجزرة تشبه أصدقائي، لكنها دائماً تسبقهم إلى القرى النائبة ومدارس الأطفال.  
المجزرة مجازٌ ميثٌ يخرج من التلفزيون، ويأكل أصدقائي دون رشة ملح واحدة.

## لو كنا في عالم افتراضي

ومع أنّ النافذة افتراضية، فإنّ القتلى حقيقيون.  
خالد سليمان الناصري

## 1- انتهت الحرب

لقد انتهت الحرب. لكنّ القنابل لا زالت تتساقط داخل رأسي.

لو كنا في عالم افتراضي  
لكنتُ مسحتُ زجاج النافذة المطلّة على بيتك بجريدة إلكترونية  
ولنمتِ الوردة البلاستيكية التي وضعتها على قبر أخي.

انتهت الحرب، والأصدقاء الذين ذهبوا إلى السوق كي يشتروا مؤثّاً طازجاً، قتلوا في الطريق.

لو كنا في عالم افتراضي  
لكنتُ أعدتُ تدوير أصدقائي  
فأنا بحاجة لأصدقاء مستعملين.

انتهت الحرب، وعاد القتلى إلى أهلهم سالمين، عاد الشهداء إلى أمهاتهم كاملين، عادت الأمهات إلى البيوت، عادت البيوت، الشوارع، الجوامع، الأعين، الأقدام، الأشلاء إلى أصحابها، عادت الأصابع إلى الأيدي، الخواتم إلى الأصابع، المدارس إلى الأطفال، عادت حبال الغسيل إلى الشرفات، العشاق إلى الأساطيح، أخي إلى أمي، وأنا عدتُ إلى الشام.

لو كنا في عالم افتراضي  
لنسيبُ أن أتذكر الحرب  
ولتذكرتُ أن أنساها، كما ينسى القتلى ملامح الجنرال  
وكما يتذكر الشهداء الطريق إلى البيت.

انتهت الحرب، وأصبح جميع من عرفتهم ميّتين، أو مجرمي حرب، أو مجرمي حرب ميّتين.

لو كنا في عالم افتراضي  
لأطفأتُ الحرب كما تطفئ التلفزيون  
ولكننا ولدنا في عالم ابن عاهرة  
وحين يولد الناس في عالم ابن عاهرة  
يتحول الزمن إلى آلة كتابة  
والقتلى إلى قصائد.

**هامش كوميدي:**

تكنم عبقرية دانتي في الليمبو، تأملها قليلاً، وستدرك فوراً أننا نعيش في أولى طبقات الجحيم.

(قطع)

\*\*\*

**2- الحرب**

حاولتُ أن أترجم لك الحرب، من لغةٍ ساميةٍ إلى لغةٍ هندو أوروبية، فأصابتك الشظايا، حاولت أن أسعفك، فحاصرنا نشرة الأخبار، حاول مجلس الأمن أن يرسل لنا أسلحة ذكية، فصادرها رجال أمن متوسطو الذكاء، شتمنا الصليب الأحمر فاعترض القاتيكان، أكلنا لحم كلابٍ منزليةٍ قُتل أصحابها، فاعترض أنصار البيئة، نجونا من الغرق فاعترض اليمين الأوروبي.

كيف يمكن أن أصف لك كم يشبه هذا العالم ضربات الأيدي الهزيلة على الجدران السميقة لغزف الغاز في معسكرات الاعتقال، دون أن تُصابي باضطرابات ما بعد الصدمة؟ كيف يمكن أن أشرح لك الفرق بين عبيد المنزل وعبيد الحقل، دون أن تختلط عليك سوريا والسورالية؟ كيف يمكن أن أقول في قصيدةٍ واحدة: قُتل أصدقائي تحت التعذيب، وأنت أجمل من نيويورك، دون أن يضحك لوركا في قبره، أو أن يفصل الشعر عن الواقع؟

**هامش تراجيدي:**

ليست مشكلة هذا العالم أن ربع سكانه يذهبون إلى عيادات الأطباء النفسيين، المشكلة أن الباقين لا يذهبون.

(قطع)

\*\*\*

**3- شطرنج**

عندما مرت الريح، لم تجد الشجرة، وكانت الفأس تنتظرُ نحوي، وأنا ضائعٌ في الترجمة، هادئٌ مثل وقف إطلاق النار، عالقٌ في كوكبٍ أزرق، في ضاحية نائية من مجرة درب التبانة. رأيتُ غزالةً تفترسُ ذنباً، وكان الدم ينقط من أسنانها، رأيت نساءً عواقر يُرضعن أجنّةً ولدوا ميّتين، رأيتُ ذباباً إلكترونياً يخرجُ من تويتر ويحوم حول جنث أصدقائي، رأيت بلداً يركبُ في قارب صيد،

ورجلاً يأكل لحم أخيه ميتاً، ليس مجازاً كما ورد في القرآن، إنما رجلاً يأكلُ جثة أخيه الذي قتل في القصف كي لا يموت جوعاً. مرت الريح ولم تجد الشجرة، لم تجد المدينة، لم تجد البلاد، لا الكلاب كانت تعوي، ولا القافلة تسير. زوجتي الأرملة تنظر نحوي، والحرب نظيفة وكأنها شطرنج. أسعار براميل النفط تصعد، وبراميل الدت إين تي تهبط على المدن، والطائرات تلحسُ الكتب المدرسية وترضعُ أصابع الأطفال، وأنا صامتٌ مثل مواطنٍ أوروبيي يتمتعُ بامتيازات العالم الأول ويتساءلُ ببراءةٍ ذنبٍ منزلي، أيهما أصعبُ: الشتاء السويدي أم الربيع العربي؟

**هامش عيبي:**

النيويورك تايمز تقول: إن الحليب أبيض، بول سيلان يقول: إن الحليب أسود، أمي تقول: لا يوجد حليب!

(قطع)

\* \* \*

#### 4- مجاز من عالم افتراضي

كان دانتلي على حق، إن هذه الكوميديا التي نعيشها إلهية، أو لكي نكون منصفين، فلنقل إنها إلهية بنسبة 97% على الأقل، وإلا كيف تفسرين أن كل ما حولنا يشبه مجازاً خارجاً من عالم افتراضي! الأزهار تمارس الجنس عن طريق النحل! أدولف هتلر كان نباتياً! نحن سعداء لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم ترم القنبلة الذرية على طوكيو! المؤيدون للديكتاتور يخرجون بمظاهرة تطالب بمنع التظاهر! أنا أحبك! الله يبيع الأراضي المليئة بالحليب والعسل! فنلندا أسعد بلد في العالم حسب تقرير السعادة العالمية! الصليب الذي تضعينه في عنقك ما هو إلا آلة تعذيب رومانية!

**هامش تراجيكوميدي:**

بما أن الجميع سوف يموت في النهاية، فإن نسبة الموت في سوريا والسويد واحدة.

(قطع)